من الفيلولوجيا إلى تحليل الخطاب عند ميشال فوكو

Fro; philology to foucauldian discourse

مسعدي بن زرقة عبد الوهاب

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر

Abdouwaheb09@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2026/05/04 تاريخ القبول: 2026/05/22

ملخص: يتناول هذا المقال التحول الإبستيمولوجي العميق الذي عرفه الفكر الغربي الحديث في مقاربته للنص والمعنى، من خلال تتبع نشأة علم الفيلولوجيا وعلاقته بزحزحة قداسة المعنى الواحد، وصولا إلى مفهوم الخطاب والتأويل عند ميشيل فوكو. ينطلق المقال من بيان السياق التاريخي والمعرفي الذي أفرز الفيلولوجيا بوصفها استجابة نقدية لسلطة الكنيسة واحتكارها لتفسير النصوص المقدسة، حيث جرى التعامل مع النص الديني باعتباره وثيقة تاريخية قابلة للفحص اللغوي والتاريخي، بما أفضى إلى تفكيك وحدة المعنى وإدخاله في أفق التعدد والتاريخية. غير أن المقال يبين أن الفيلولوجيا، رغم طابعها النقدي، ظلت مشدودة إلى أفق البحث عن الأصل، وهو ما سيخضع لاحقا لنقد جذري مع فلسفة ميشيل فوكو. ففي أفق فوكو، لا يعود التأويل بحثا عن معنى ثابت أو أصل متعال، بل تحليلا لشروط تشكل المعنى داخل أنظمة خطابية متداخلة، حيث تغدو الحقيقة نتاجا تاريخيا لعلاقات المعرفة والسلطة. ويخلص المقال إلى أن هذا التحول أسهم في إعادة تعريف التأويل الديني بوصفه ممارسة تاريخية وصراعية، لا فعلا كشفيا محايدا، مما يجعل الصراع حول النص الديني جزءا من صراع أوسع حول الشرعية المعرفية وحق القول.

كلمات مفتاحية: الفيلولوجيا، التأويل، الخطاب، ميشيل فوكو، النص الديني، التحول الإبستيمولوجي، السلطة والمعرفة، قداسة المعنى.

Abstract:

This article examines the profound epistemological transformation in modern Western thought regarding the concepts of text and meaning, by

tracing the emergence of philology and its role in destabilizing the sanctity of a single, fixed meaning, leading to Michel Foucault's concept of discourse and interpretation. The study begins by outlining the historical and intellectual context that gave rise to philology as a critical response to ecclesiastical authority and its monopoly over the interpretation of sacred texts. Through philological analysis, the religious text came to be treated as a historical document subject to linguistic and historical scrutiny, thereby undermining the unity of meaning and introducing it into a horizon of plurality and historicity. However, the article demonstrates that classical philology, despite its critical impulse, remained oriented toward the recovery of an original text. This assumption is radically questioned in Foucault's thought, where interpretation is no longer a search for a stable or transcendent meaning, but an analysis of the conditions under which meaning is produced within intersecting discursive formations. In this perspective, truth becomes a historical product of power-knowledge relations. The article concludes that this epistemological shift fundamentally reconfigures religious interpretation as a historical and conflictual practice rather than a neutral act of revelation, rendering the struggle over religious texts part of a broader struggle over epistemic authority and the right to define truth.

Keywords:

Philology, Interpretation, Discourse, Michel Foucault, Religious Text, Epistemological Transformation, Power and Knowledge, Meaning.

---

*المرسل

.المقدمة:

تشهد الدراسات المعاصرة في العلوم الإنسانية، ولا سيما في تقاطعاتها مع فلسفة اللغة وتحليل الخطاب، عودةً لافتة إلى مساءلة الأصول المعرفية التي أسست علاقتنا الحديثة بالنص، والمعنى، والحقيقة. ولم يعد من الممكن مقاربة تحولات الفكر الغربي—خاصة مع أعمال ميشيل فوكو—دون استحضار تلك اللحظة التاريخية الحاسمة التي تم فيها تفكيك مركزية المعنى اللاهوتي، وإعادة بناء النص بوصفه موضوعًا

للفحص والتحقيق. من هنا تكتسب العودة إلى نشأة الفيلولوجيا أهميتها، لا بوصفها مجرد خلفية تاريخية، بل باعتبارها شرطًا إبستمولوجيًا سابقًا مكّن لاحقًا من تشكّل الأسئلة الفوكوية حول الخطاب والتأويل.

ينطلق هذا المقال من فرضية مركزية مفادها أن الفيلولوجيا، كما تبلورت في سياق نقد الكتاب المقدس خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، لم تكن مجرد تقنية لتحرير النصوص أو التحقق من نسبتها، بل شكلت لحظة قطيعة معرفية أعادت تعريف العلاقة بين الإنسان والحقيقة عبر وسيط النص. فقد أفضت أعمال رواد النقد التاريخي، وعلى رأسهم باروخ سبينوزا وريتشارد سيمون وجان أستروك، إلى زعزعة فكرة النص المعصوم بوصفه معطى مكتملًا، وفتحت المجال أمام اعتباره وثيقة تاريخية خاضعة لشروط النقل، والتحرير، والتأويل. وبهذا المعنى، دشّنت الفيلولوجيا انتقالًا حاسمًا من سلطة التلقي إلى سلطة الفحص، ومن قداسة المعنى إلى إشكالية إنتاجه.

غير أن هذه القطيعة، على راديكاليتها، ظلت محكومة بأفق إبستمولوجي يفترض إمكانية العودة إلى أصلٍ ما، أو الاقتراب منه عبر أدوات النقد والتحقيق. وهنا بالذات تتدخل قراءة ميشيل فوكو لتقويض هذا الافتراض، عبر نقل مركز الاهتمام من النص بوصفه وثيقة إلى الخطاب بوصفه نظامًا منتجًا للمعنى والحقيقة. فلم يعد السؤال عنده: ما مدى صحة النص؟ بل: ما الشروط التي تجعل خطابًا ما ممكنًا، وقابلًا لأن يُعترف به بوصفه حقيقة؟

يسعى هذا المقال، إذن، إلى بناء جسر مفهومي بين الفيلولوجيا بوصفها لحظة تأسيسية في تاريخ نقد النص، وبين المشروع الفوكوي الذي يعيد مساءلة شروط القول ذاتها. وهو بذلك لا يهدف إلى تقديم عرض تاريخي للفيلولوجيا فحسب، ولا إلى تلخيص أطروحات فوكو، بل إلى الكشف عن العلاقة العميقة التي تربط بينهما: علاقة انتقال من نقد النص إلى نقد أنظمة إنتاج المعنى.

وتتحدد إشكالية البحث في السؤال التالي: كيف مهّدت الفيلولوجيا، بوصفها ممارسة علمية لتحرير النصوص، لظهور تصور جديد للخطاب عند فوكو، حيث لا يعود المعنى كامنًا خلف النص، بل متشكلًا داخله وضمن شروطه التاريخية؟ وما الذي يعنيه هذا التحول بالنسبة لفهم التأويل، خاصة في علاقته بالسلطة والحقيقة؟

يعتمد المقال منهجًا تحليليًا-تاريخيًا، يقوم على تتبع التحولات المفهومية التي مست علاقة النص بالمعنى، انطلاقًا من النقد الكتابي في العصر الحديث، وصولًا إلى تحليلات الأركيولوجيا المعرفية والجينالوجيا عند ميشيل فوكو. كما يسعى إلى إبراز كيف أن ما بدا في البداية تحريرًا للنص من سلطة التأويل اللاهوتي، قد أفضى لاحقًا إلى إعادة تشكيل السلطة داخل أنماط جديدة من الخطاب العلمي.

بهذا المعنى، لا يتناول هذا البحث الفيلولوجيا وفوكو بوصفهما مرحلتين منفصلتين، بل بوصفهما لحظتين داخل مسار واحد: مسار إعادة تعريف الحقيقة ذاتها، من معطى يُكتشف إلى بناء يُنتج داخل شروط تاريخية وخطابية محددة.

1 . اللحظة الفيلولوجية في التاريخ الغربي

لم تنشأ الفيلولوجيا في الغرب بوصفها تخصصًا لغويا محايدا، ولا كترف أكاديمي مرتبط بإحياء التراث الكلاسيكي فحسب، بل ظهرت—في أحد أهم مساراتها—استجابةً مباشرة لتحوّل تاريخي عميق : تفكك احتكار الكنيسة لقراءة النص المقدّس، وتحوّل النص من "معطى معصوم" إلى "وثيقة قابلة للفحص ."ومن ثمّ فالفيلولوجيا ليست مجرد منهج تقني، بل هي، في عمقها، إعادة تأسيس للعلاقة بين الإنسان والحقيقة عبر وسيط جديد :النص/الوثيقة.

لقد مهّدت أوروبا، قبل النهضة، سياقا اجتماعيا وسياسيا بالغ التعقيد: انقسامات سياسية، نظام إقطاعي، أوبئة ومجاعات، وحروب ممتدة. غير أنّ ما يهمّنا في هذا السياق ليس تعداد العوامل بقدر ما يهمّنا ذلك الخيط الناظم الذي يجمعها ويحوّلها إلى مشكل معرفي.

ونتيجة لهذه الظروف الفكرية الجديدة، ستحين فرصة ظهور تيار الإصلاح البروتستانتي ثم فلسفة الأنوار بعده، وما عرف عن كليهما -خاصة هذه الأخيرة- من جدل مع الكنيسة حول الكتاب المقدس، فتثور نقاشات نقدية جديدة تماما لم تعرف من قبل أدت إلى الخوف من "هدم" الديانة وكسر هيبتها وتأثيرها

على المؤمنين، أو هذا ما كانت توحي به كلمة "نقد"[1] التي تسوّغ احتمالية وجود الخطأ والوهم والتلفيق والخرافة والبدعة في الكتاب الإلهي المعصوم.

في القرن السابع عشر عرفت دراسة الكتب المقدسة تحولا جوهريا مع بروز كل من اسبينوزا[2]، ريتشارد سيمون[3] و جان أستروك[4]. حيث كان ظهورهم بداية التأسيس لما يسمى بالنقد التاريخي.

يعتبر هذا المنهج أحد المناهج العلمية التي وضعتها الفلسفة الحديثة، كما يعتبر أهم مكاسب الحضارة الأوربية بالنسبة لدراسة التوراة و الإنجيل، نتج عن تأليه العقل في القرن السابع عشر و إخضاع الطبيعة له. فكما أن هناك نظاما للطبيعة، هناك أيضا قوانين لضبط صحة الرواية، و لا فرق بين الظاهرة الطبيعية و النص الديني، كلاهما يخضع للعقل و قواعده[5].

و منذ ذلك الحين بدأ الاعتناء بالنص و الوثيقة، لأنهما الشاهد الوحيد على الغائب من هذه الأمم، فأصبح – قبل التسليم بما ورد فيهما من شهادات– لابد من التأكد أولا من صحة المعلومات الواردة فيهما، كالتأكد من صحة الوثيقة نفسها و من صحة نسبتها إلى صاحبها.

من هنا برزت الحاجة إلى علم أو علوم تسعى إلى الكشف عن كل ما تتضمنه هذه الوثيقة أو النص اللذين وصلا إلينا في نسخ كثيرة و أزمنة تحرير مختلفة، و في بعض الأحيان في نسخة فريدة، قد تكون أصلية، و

---

[1] – يوسف كلام، 2009، تاريخ و عقائد الكتاب المقدس بين إشكالية التقديس و التقنين، دار صفحات، سوريا

[2] – باروخ اسبينوزا(1632-1677)،فيلسوف هولندي من أصول يهودية، يعتبر من أهم فلاسفة عصر التنوير(القرن17)، أهم أعماله الفلسفية كتاب "الأخلاق" و"رسالة في اللاهوت و السياسة".

[3] – ريتشارد سيمون(1638-1712)، قسيس كاثوليكي، و مترجم الكتاب لمقدس إلى الفرنسية، اشتهر بتأسيسه لمنهج النقد للكتاب المقدس.

[4] – جان أستروك)1684-1766)، بروفيسور فرنسي شهير في الطب، كان عالما أيضا بالدراسات المسيحية و لعب دورا أساسيا في تطوير منهج النقد للكتاب المقدس.

[5] – باروخ اسبينوزا، رسالة في اللاهوت و السياسة، تر: حسن حنفي،2012، دار التنوير، لبنان

قد لا تكون؛ علم يبنى على أسس متينة، من شأنها بيان كيفية التعامل مع النص و الوثيقة في جميع الحالات[6].

غير أن الكشف عن كل ما تتضمنه الوثيقة ليس بالأمر السهل، بل يشبه أن يكون مستحيلا على عمل فردي يقوم به الناقد التاريخي، و يرجع ذلك إلى عاملين أساسيين :

1. ضخامة الموروث الثقافي الذي حازته أوربا من الحضارتين الإغريقية و الرومانية.
2. التنوع الكبير في محتويات الكتاب المقدس من إلهيات و شرائع وأخلاق و تاريخ و ملاحم و نظم اقتصادية و سياسية تتلاءم والعصر الذي كتبت فيه تلك النسخ.

لذلك ركز النقد العلمي على أهم سمتين تميزان الكتاب المقدس و هما كونه: وثيقة تاريخية و نصا أدبيا في آن واحد، فاللغة و التاريخ إذن، هما المرتكز الأساسي في عملية النقد.

في الناحية التاريخية نجد أن أهم الأعمال كانت منصبة على فكرة أن التراث المخطوط لم يصل إلينا في نسخه الأصلية، بل وصل إلينا عن طريق شواهد ووسائط خضعت لألوان من التحريف والتصحيف، فأخذ على عاتقه استرجاع لا النسخ الأصلية، بل الشواهد التي ضاعت مع الزمن والتي يمكن أن تهديه إلى شكل قريب من النص الأصلي .و هو ما يمكننا أن نبدأ التأريخ له من القرن السابع عشر، القرن الذي ظهر فيه اسبينوزا متوّجا قرونا من التفاسير العبرية للعهد القديم بمجموعة من الملاحظات و الأسئلة الجريئة –مقارنة بعصره– و التي ستحدث طفرة في الدراسات الدينية اليهودية و المسيحية .

ويعد باروخ سبينوزا رائد المنهج الاستنباطي –حيث– مهد طرقاً جديدة لعلم العهد القديم وبلا شك فإن طرق بحثه وخصائصها النقدية ليست جديدة كلياً، بل إن معظمها مستمد من أرشيف الباحثين السابقين له — خاصة ابراهيم بن عزرا– غير أن النتائج التى استنتجها فى عصره قوضت أي قلعة تفسيرية، وبقوتها ووضوحها أجازت البحث والتأمل وكانت النتائج متسقة مع الحقائق العلمية للعصر[7].

---

[6] – يوسف كلام، تاريخ و عقائد الكتاب المقدس، 2009، دار صفحات للدراسات والنشر، سوريا

[7] – زالمان شازار، تاريخ نقد العهد القديم: تر أحمد محمد هويدي، 2000، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر

يطرح اسبينوزا أسئلة على غرار: بواسطة من ألفت أسفار الكتابات المقدسة؟ و متى ألفت؟ و ما صحة الرأي الرسمي الذي ينسب كتابة كل سفر من الأسفار إلى البطل الرئيسي الذي يتحدث عنه السفر؟

و كان من شأن هذه الأسئلة أن تبعث النظر من جديد في مسألة تأليف موسى –عليه السلام– للتوراة، و النظر إلى أسفار الأنبياء على أنها أسفار تاريخية، و دور عزرا في تأليف التوراة، و زمن تأليف الأسفار الخمسة و غير ذلك من المشاكل النقدية التي تثبت بشرية النص المقدس أو على الأقل تثبت تداخل الإلهي مع البشري فيها.

عرفت دراسات نقد الكتاب المقدس تطورات سريعة و مهمة في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر و مطلع القرن العشرين، و صاحب هذا التطور بروز عدة نظريات نقدية ، و من بين هذه النظريات كانت نظرية المصادر التي كان لجان أستروك الطبيب الفرنسي الشهير فضل السبق في تأسيسها، و التي تشير إلى أن موسى عليه السلام قد كتب التوراة بناء على مصدرين أساسيين اثنين، و استعان بمصادر ثانوية أخرى، و قدّم أستروك على ذلك أربعة براهين(تسمية الذات الإلهية باسمين مختلفين، التكرار و نفي التناقض عن موسى عليه السلام، اختلاف سفر التكوين عن بقية الأسفار من حيث المحتوى و الأسلوب، اختلال التسلسل الزمني للأحداث).

أظهر أستروك آراءه وأبحاثه حول العهد القديم من خلال كتابه الكبير الذي أصدره سنة 1753م ببروكسل تحت عنوان:

"Conjectures sur les mémoires originaux dont il parait que Moise s'est servi pour composer le livre de la Genèse. Avec des remarques qui appuient ou qui éclaircissement ces conjectures".

ومعناه: "فرضيات – أو آراء – عن المصادر الأصلية التي يبدو أن موسى استخدمها في كتابة سفر التكوين مع الملاحظات التي تؤيد هذه الفرضيات" وكان قد تردد في نشر كتابه –كما ذكر في المقدمة –

لولا إشارة بعض أصدقائه عليه بنشره، خوفا من أن يستغله الذين يريدون التحلل من سلطة التوراة، لأنهم قد يستغلون كتابه في الطعن في مصداقيتها .[8]

يمكننا الإشارة هنا إلى وجود التداخل بين النقد التاريخي و النقد الأدبي، إذ نلاحظ أن أستروك مثلا اعتمد على اختلاف الأسلوب الأدبي و نوعية المحتوى و تحليل زمن الخطاب ، أي أنه اعتمد على تقنيات التحليل النصي كأدلة لإثبات نظريته التاريخية.

هنا كانت اللحظة التي ولد فيها علم الفيلولوجيا.

لا نجد أصلا لكلمة فيلولوجيا في الكلام العربي، لأنها كلمة واردة إلى الفكر العربي من الأدبيات الغربية المعاصرة. "وهي كلمة مركبة من لفظين إغريقيين أحدهما Philos بمعنى الصديق ، والثاني Logos بمعنى الخطبة أو الكلام ، فكأن واضع التسمية لاحظ أن فقه اللغة يقوم على حب الكلام للتعمق في دراسته من حيث قواعده وأصوله و تاريخه. وعلى هذا النحو كان العلماء في عصر إحياء العلوم يفهمون (فقه اللغة) ، بل كان هذا الاسم إذا أطلقوه لا ينصرف إلا إلى دراسة اللغتين الإغريقية واللاتينية من حيث قواعدهما وتاريخ أدبهما ونقد نصوصهما..."[9]

الشائع أيضا في ترجمة كلمة فيلولوجيا إلى اللغة العربية لدى الباحثين المهتمين بهذا المجال هو "فقه اللغة"، و هو أكثر ما يتكرر في سياق الكلام عن هذا المنهج . غير أن هناك من الباحثين من يترجمون الفيلولوجيا أيضا إلى "علم اللغة"[10] دون تفريق بينه و بين فقه اللغة، إذ من العسير تحديد الفروق الدقيقة بينهما ، لأن جل مباحثهما متداخل لدى طائفة من العلماء في الشرق والغرب ، قديماً وحديثاً. وقد سمح هذا التداخل أحياناً بإطلاق كل من التسميتين على الأخرى[11]، هذا من حيث التسمية. أما فيما يخص المعنى و موضوع

---

[8] – ينظر نظرية المصادر عند جون أستروك، المفهوم و التأسيس، دنداني عبد العزيز، مجلة معارف، البويرة، الجزائر، المجلد18، العدد1، 2023.

[9] – صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، 2004، دار العلم للملايين، لبنان

[10] – مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنية، 1995، دار الفكر اللبناني، لبنان

[11] – المصدر السابق،ص19

الدرس فمنهم من يرى في الفيلولوجيا مجرد درس لقواعد الصرف و النحو و نقد نصوص الآثار الأدبية، و منهم من يذهب إلى أنه ليس درس اللغة فقط، و لكنه بحث عن الحياة العقلية بجميع وجوهها[12].

وكون الفيلولوجيا علم يهتم بالنص المكتوب و اللغة في الوقت نفسه، جعله تقاطعَ فروع علمية عدة، كالدراسات الأدبية ،الفنون، تاريخ الحضارات، علم المخطوطات، نقد الكتب المقدسة، ثم فيم بعد اللسانيات و فروعها و الآداب المقارنة وغيرها. وهذا ما نلحظه في المراحل التي مر بها أثناء نشأته و تطوره، فقد بدأ أولا بالاهتمام بالتراث الإغريقي و الروماني و لغاته القديمة، ثم انتقل مع بداية القرن السابع عشر إلى دراسة اللغات الأقل قدما، و المخطوطات القروسطية. ثم ظهرت الفيلولوجيا الجديدة التي جعلت موضوعها متمركزا حول النصوص القديمة المكتوبة بإحدى اللغات المعاصرة. وبقي هذا العلم على ما هو عليه إلى أن جاء Grober[13] بما سماه "الفيلولوجيا الحقيقية" المهتمة بالنص فقط، و التي سيتفرع عنها ما سيعرف فيما بعد باللسانيات بكل فروعها. كما نشأت كذلك علوم ذات صلة كعلم تاريخ الآداب و النحو المقارن وعلم المكتبات، و علم أساليب الكتابة و علم فك الرموز و غيرها. فقد شملت الدراسات الفيلولوجية التأريخ للنص و فك رموزه و المقارنة بين الطبعات و ترتيب الأخطاء و شرحها و رصد الإضافات المقحمة على النص و تأسيس معايير التثبت من صحة النصوص[14].

بعد هذا الملخص التاريخي المركز للمراحل التي مر بها هذا العلم، نجد أن من الحسن أن نُتبعه بتعليق الباحث يوسف كلام لما له من أهمية ، يقول الباحث:" من هذه الإطلالة السريعة على تاريخ علم الفيلولوجيا ونشأته نلمس حقاً أن هذا العلم يطرح مشكلة على مستوى التعريف، فاختلاف تعاريفه ناتج من اختلاف مُعرّفيه من حيث اختصاصاتهم العلمية واختلاف نظرتهم إلى هذا العلم، فالمهتم بتاريخ الحضارات سيعطيه تعريفاً قريباً من تخصصه، وكذا اللغوي واللساني وغيرهم، ومع أن هذه التعاريف تبدو مختلفة وغير متجانسة حتى التناقض أحياناً فالجمع بينها ممكن إذا ما نظرنا إليها في إطار تكاملي، حيث

---

[12] – أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة و أسرار العربية، المكتبة العصرية،2000، لبنان

[13] – جوستاف جروبر(1844-1911)، عالم لغوي ألماني، كان أستاذا بجامعة ستراسبورغ، و اشتهر بأعماله حول الأدب الروماني و الأبحاث اللغوية

[14] – يوسف كلام ، تاريخ و عقائد الكتاب المقدس

يعد بعضها خطوة أولية موصلة إلى الآخر. فإذا كان الهدف من الفيلولوجيا هو بناء التاريخ الحضاري للأمم، فلن يتحقق إلا باستثمار النصوص المكتوبة والوثائق القديمة بإعدادها وطبعها ونقد صحتها والبحث عن مصادرها و نتتبع تطورها الثقافي في مظاهرها اللغوية، ونعيش معها بروح كتابها الأصليين"[15].

كل التعريفات الأخرى التي اطلعنا عليها تدور حول هذه المعاني، و من خلالها يمكننا ملاحظة أن هناك فئة تركز في التعريف على موضوع الدرس فقط، وهو اللغة بجزئياتها و فروعها و لواحقها. و فئة أخرى تركز على الغاية من دراسة هذا الموضوع. و بالجمع بينهما نجد أن الفيلولوجيا هو العلم الذي يدرس اللغة – بكل تفاصيلها– كوسيلة لدراسة الثقافة[16]. أي أن هدف العمل الفيلولوجي هو جعل عملية القراءة منطلقا يمكّن القارء من معايشة النص و العيش معه بروح كاتبه الأصلي[17]. وإذا تقرر هذا فيمكننا إذن الإشارة إلى ملاحظة في الفرق بين فقه اللغة عند علماء العربية ، و بين فقه اللغة philology عند العلماء الغربيين، من حيث الاشتغال. فهو عند علماء العربية علم تطبيقي يتناول جميع مباحث اللغة العربية من أصولها إلى فروعها إلى تاريخها ... أي أنهم مشتغلون عليها حفاظا على حيويتها و بغية تطويرها أيضا. أما الفيلولوجيون فحين يهتمون باللغة العربية فيقتصرون على المباحث التاريخية التي تبين أصل اللغة و تاريخها و عوامل ارتقاءها و نهوضها، و هم بذلك مكتفون بالوصف و التنظير[18].

تحدّت الفيلولوجيا سطوة الكنيسة بوصفها السلطة التي تحدّد ما يُقرأ وكيف يُقرأ .فمن داخل هذه البنية نشأت الحاجة إلى منافسة تلك السلطة، لا عبر السلاح فحسب، بل عبر أدوات المعرفة. ولهذا يصبح السؤال عن النص: من يملكه؟ من يفسره؟ ومن يضمن صحته؟ أهم سؤال معرفي في تلك الفترة.

غير أن هذه اللحظة الفيلولوجية –برغم قوتها– تحمل مفارقة ستقودنا مباشرة إلى فوكو: فهي من جهة حررت النص من احتكار التأويل الكنسي، لكنها من جهة أخرى أنشأت صورة جديدة للمعنى :المعنى

---

15 – المصدر نفسه

16 – معجم المصطلحات الألسنية، مبارك مبارك، ص220

17 – المصدر السابق،ص37

18 – أثر الاستشراق الفيلولوجي على الحداثيين في نقدهم للتراث الإسلامي، سليمان جبار، مجلة المعيار، العدد:22، 2022، قسنطينة، الجزائر، ص173

الذي يُستخرج عبر أدوات العلم، ويُضبط بقواعد ''الصحة''، ويُراد له أن يقترب من ''النص الأصلي'' أو ''الشاهد الأقرب إلى الأصل''. وهنا بالذات تبدأ أسئلة الخطاب والتأويل عند فوكو: هل يوجد أصلٌ نهائي حقًا؟ وهل ما نسميه ''عودة إلى النص'' عودة بريئة؟ أم أنها إنتاج جديد للمعنى داخل منظومة قواعد؟

بهذا المعنى تصبح الفيلولوجيا مقدمة ضرورية لفهم فوكو: لأنها المرحلة التي تحوّل فيها النص إلى موضوع للمعرفة، وتحولت القراءة إلى تقنية، وتحول ''المقدّس'' إلى ''وثيقة''؛ ومن ثم انتقلت السلطة من رجل الدين إلى الخبير—إلى العالم—لكنها لم تختفِ، بل تبدّلت أشكالها.

2 من الفيلولوجيا إلى فوكو: كيف انتقل الغرب من "نقد النص" إلى "نقد شروط القول"؟

إذا كانت الفيلولوجيا قد اشتغلت على النص باعتباره وثيقة ينبغي إثباتها، فإن فوكو سيقول: ليست المشكلة في الوثيقة وحدها، بل في نظام الخطاب الذي جعل هذه الوثيقة تُقرأ بهذا الشكل دون غيره، وفي القواعد التي تسمح لأقوال معينة أن تصبح ''علمًا'' بينما تُقصى أقوال أخرى.

يرفض فوكو طريقة شائعة في قراءة التاريخ: أن نعامل الخطاب كقشرة ينبغي اختراقها للوصول إلى ''تجربة أصلية'' صامتة وراءه. إنه يعلن صراحة أن هدفه ليس استعادة ''الشيء'' كما كان قبل أن تتكلم اللغة عنه، بل تحليل انتظام الكلام ذاته:

"ما يعنينا هنا أساساً، ليس اضفاء صفة الحياد على الخطاب، واعتباره مجرد إشارة أو علامة تدل على شيء آخر، علينا اختراق سمكها لنبلغ أو نصل إلى ما هو جاثم وقابع في صمت وراءها، بل الحفاظ على صلابته وجعله ينبجس في تعقيده الخاص به".[19]

هذه العبارة تُحدث قطيعة مع نزعة ''العودة إلى الأصل'' التي تغري الفيلولوجيا أحيانًا. فحتى حين تقول الفيلولوجيا إنها تبحث عن ''الشاهد الأقرب إلى النص الأصلي''، يظل هناك افتراض ضمني بأن الأصل موجود ويمكن الاقتراب منه. أما فوكو فينقل المعركة إلى مستوى آخر :ليس الأصل هو الذي يفسر الخطاب، بل الخطاب هو الذي يحدد ما الذي يمكن أن يُسمّى أصلًا.

[19] - حفريات المعرفة، ميشال فوكو، تر:سالم يفوت، ط2، المركز الثقافي العربي،بيروت، لبنان، 1987،ص46

لذلك يقترح استبدال ‘‘عمق الأشياء’’ بما يسميه ‘‘التكوّن المنتظم للموضوعات:’’

»نريد... أن نستغني عن الأشياء... وأن نستبدل المخبأ الدفين للأشياء، السابق على الخطاب، بالتكوّن المنتظم للموضوعات التي لا ترتسم ولا تظهر إلا في الخطاب«[20].

بهذا تصبح ‘‘الموضوعات’’ نفسها—الجنون، المرض، الانحراف، وحتى ‘‘الإنسان’’—ليست معطيات طبيعية تنتظر التسمية، بل نتائج تاريخية لخطابات، ومؤسسات، وممارسات، وقواعد تسمح بالقول والتصنيف والتشخيص. وما كان الفيلولوجي يفعله تجاه النصوص (تمييز النسخ، رصد الإضافات، كشف التراكم) سيصبح عند فوكو أشمل: تمييز انتظامات القول، ورصد قواعد ظهوره، وكشف علاقته بالمؤسسات والسلطة.

ولهذا يقول فوكو:

"نريد أن نحدد هذه الموضوعات دون ارجاعها أو إحالتها إلى عمق الأشياء، بل بردها إلى مجموع القواعد التي تسمح بامكانها كموضوعات خطاب، مشكلة بذلك شروط ظهورها التاريخي"[21]

هنا تتضح فكرة محورية: الفيلولوجيا تسأل ‘‘ما صحة النص؟’’، أما فوكو فيسأل ‘‘ما شروط ظهور هذا النوع من القول بوصفه صحيحًا؟ ومن الذي يملك حق تعريف الصحة؟.’’

3 التأويل عند فوكو: لماذا لا ينتهي؟ ولماذا هو صراع لا كشفٌ هادئ؟

بعد أن يثبت فوكو أن الخطاب ليس مرآةً، بل مجال تكوّن الموضوعات، يعيد تعريف التأويل. والتأويل هنا ليس مجرد فهمٍ أفضل للنص، بل فهمٌ لطبيعة المعنى في العصر الحديث وما بعده.

أول ما يعلنه فوكو هو أن التأويل لا يقف خارج ذاته، بل يرتد عليها: "التأويل ينعكس دائما على ذاته"[22]

---

20 ـ نفسه

21 ـ نفسه، ص47

22 – جيانولوجيا المعرفة، ميشال فوكو،تر: أحمد السطاتي وعبد السلام بن عبد العالي، ط2، دار توبقال، الدار البيضاء المغرب، 2008، ص46

هذه العبارة ليست وصفًا بل تأسيس: فهي تقول إن التأويل لا يسير في خط مستقيم من علامة إلى معنى نهائي، بل يدور داخل شبكة من العلامات التي لا تتوقف عن إحالة بعضها إلى بعض. ومن هنا تأتي النتيجة الثانية:

"التأويل أصبح مهمة لا نهاية لها."[23]

لكن لماذا صار لا نهائيًا؟ هنا يقدم فوكو قلب حجته: لسنا نؤوّل لأن هناك ''علامات أولى'' غامضة، بل لأن الواقع ممتلئ بتأويلات قائمة تفرض نفسها بوصفها معاني نهائية. لذلك تصبح مهمة التأويل في جزء كبير منها مقاومة تأويل:

"لسنا مدعويين لنخوض عملية التأويل لأن هناك علامات أولية غامضة، إنما لأن هنالك تأويلات، ولأن كل ما ينطق ويتكل يخفي وراءه نسيجا من التأويلات العنيفة، لهذا السبب هنالك علامات تحثنا على القيام بتأويل لتأويلها وتدفعنا لأن نثور ضدها"[24]

وهنا ينتقل فوكو إلى أخطر ما في التأويل الحديث: لا يوجد ''ما يُؤوَّل'' بوصفه مادة أولى خامًا، لأن كل ما نلمسه في الحقيقة هو تأويلات :"إذا لم يكن في استطاعة التأويل أن يكتمل فذلك لسبب بسيط وهو عدم وجود ما يؤول... فليس هناك عنصر أول ينبغي تأويله وينطلق منه التأويل... لأن العناصر كلها تكون في الحقيقة تأويلا."[25]

إذن ''العلامة'' ليست بداية، بل طبقة. و''الدليل'' ليس جوهرًا خامًا، بل تفسير سابق:

»كل دليل لا يشكل في ذاته الشيء الذي يعرض نفسه للتأويل وإنما هو تأويل لعلامات أخرى«.

)ميشيل فوكو، *جيانولوجيا المعرفة* ـــــ

ثم يأتي التحول الحاسم: التأويل ليس علاقة سلام، بل علاقة صراع. فكل تأويل جديد لا يظهر إلا بمزاحمة تأويل سابق، وإزاحته، وقلبه. لذلك يصف فوكو العلاقة بأنها ''عنف'' بقدر ما هي توضيح:

---

[23] – نفسه، ص49

[24] – نفسه، ص52

[25] – نفسه، ص54

" ليس هناك موضوع من موضوعات التأويل إلا وقد أول من قبل، بحيث تكون العلاقة التي تقوم في عملية التأويل علاقة عنف بقدر ما تكون علاقة وضيح وكشف ."[26]

ويزيد ذلك وضوحًا:

"التأويل لا يكشف خفايا مادة للتأويل تعطي نفسها بشكل سلبي منفعل... إن التأويل لا يمكنه إلا أن يستحوذ وبعنف على تأويل آخر سبق وجوده من قبل فيقلبه... وينزل عليه ضربات عنيفة"[27]

بهذا تصبح القراءة ممارسة داخل حقل قوة: هناك تأويلات مهيمنة وأخرى مقاومة، وهناك مؤسسات تمنح معنى شرعية، وأخرى تُقصيه، وهناك تاريخ كامل من الإزاحات.

4 النص الديني بين الفيلولوجيا وفوكو: من "وثيقة تُفحص" إلى "خطاب يُنتج الحقيقة"

إذا عدنا الآن إلى النص الديني في سياق التحول المعرفي الغربي، سنجد أن الفيلولوجيا شكلت أول قطيعة منهجية كبرى مع فكرة المعنى الواحد المقدس الذي يتعالى على التاريخ واللغة. فقد جرى التعامل مع النص، لأول مرة بشكل منهجي، لا بوصفه كلاما مفارقا مكتفيا بذاته، بل بوصفه وثيقة تاريخية خاضعة لشروط النقل والتدوين والتحرير. وهكذا لم يعد السؤال يدور فقط حول ما الذي يقوله النص، بل أصبح يتعلق بصحة النسخ، وسلامة النسبة، وتعدد المخطوطات، واختلاف الازمنة والاساليب، وطبقات التراكم النصي التي تشكلت عبر قرون طويلة. وبهذا المعنى، زحزحت الفيلولوجيا قداسة المعنى من الداخل، لا عبر نفيه صراحة، بل عبر إدخاله في افق الفحص العلمي.

غير أن هذه القطيعة، على راديكاليتها، ظلت مشدودة إلى افق كلاسيكي مخصوص. إذ كانت الفيلولوجيا، في جوهرها، تبحث عن نص اقرب إلى الاصل، وتفترض أن وراء التعدد والاختلاف والتشويه نصا اوليا يمكن نظريا استعادته أو الاقتراب منه. فالاصل ظل حاضرا بوصفه افقا ناظما للعمل النقدي، حتى وإن صار الوصول إليه عسيرا أو مستحيلا عمليا. وهنا كانت الفيلولوجيا تزعزع المعنى دون ان تلغيه، وتؤرخه دون ان تفكك فكرة مرجعيته النهائية.

---

[26] – نفسه

[27] – نفسه

أما مع فوكو، فإن اللعبة ستتخذ منحى اعمق واكثر جذرية. ففوكو لا يقف عند حدود السؤال: هل هذا النص اصلي ام محرف؟ بل يتجاوز ذلك إلى مساءلة فكرة الاصل نفسها. فالاصل، في نظره، ليس معطى بريئا سابقا على التاريخ، بل هو نتيجة نظام خطابي محدد، ومؤسسات علمية ودينية، وتقاليد تفسيرية، هي التي تقرر ما الذي يعد اصلا، وما الذي يقصى بوصفه هامشيا او شاذا. فالاصل ليس نقطة بداية طبيعية، بل اثر لسلطة معرفية تنظم القول وتوزع الشرعية.

من هنا يمكن فهم التحول الجذري في معنى التأويل الديني داخل افق فوكو. فالتأويل لم يعد بحثا عن المعنى الالهي الثابت القابع خلف النص، خارج التاريخ واللغة والصراع، بل صار تحليلا لتاريخ تشكل المعنى داخل شبكات متعددة من الخطابات. فالمعنى الديني لا يظهر الا من خلال خطاب فقهي يضبط الاحكام، او خطاب كلامي يؤسس العقائد، او خطاب صوفي يعيد تشكيل التجربة، او خطاب سياسي يوظف النص، او خطاب استعماري يعيد قراءته، او خطاب حداثي يسائله وينتقده. وكل خطاب من هذه الخطابات يمتلك ادواته الخاصة، ومؤسساته، ومفاهيمه، واليات شرعنته، وحدود ما يمكن قوله داخله.

وبهذا المعنى، يصبح الصراع حول النص الديني ليس صراعا تأويليا محضا، بل جزءا من صراع اوسع حول من يملك حق القول، ومن يملك سلطة تعريف الحقيقة، ومن يقرر ما الذي يعد فهما صحيحا وما الذي يصنف بوصفه انحرافا او بدعة او قراءة مرفوضة. فالتأويل، في افق فوكو، ليس فعل كشف بريئا، بل ممارسة سلطة بقدر ما هو ممارسة فهم.

خاتمة :

في ختام هذا المسار، لا يظهر الانتقال من الفيلولوجيا إلى ميشيل فوكو بوصفه امتدادًا هادئًا لتقليد نقدي سابق، بل كتحوّل في مستوى النظر ذاته. فبينما انشغلت الفيلولوجيا بتثبيت النص وإعادة بنائه عبر أدوات التحقيق، فإن الرهان الفوكوي يتجاوز ذلك ليضع موضع التساؤل الإطار الذي جعل هذا الانشغال ممكنًا أصلًا. لم يعد الأمر متعلقًا بترميم نص أو تصحيحه، بل بفهم الشروط التي منحت بعض الأقوال قيمة الحقيقة، ودفعت غيرها إلى الهامش أو الإقصاء.

ومن هنا، تتغير طبيعة التأويل جذريًا: فهو لا يتحرك نحو نهاية يُفترض بلوغها، بل يعمل داخل فضاء ممتلئ بتأويلات سابقة، يشتبك معها، ويعيد ترتيبها، ويقوّض بديهيتها. إن ما يبدو بحثًا عن معنى، يكشف في العمق عن صراع حول شرعية المعنى نفسه، وعن آليات إنتاجه وتداوله داخل أنظمة معرفية وتاريخية محددة..

بهذا المعنى، لا يعود النص–مهما كانت طبيعته– نقطة انطلاق بريئة، ولا يصبح التأويل مجرد أداة فهم، بل يغدو كلاهما جزءًا من شبكة معقدة تتقاطع فيها المعرفة مع السلطة. ومن ثم، فإن إعادة التفكير في هذا المسار لا تفتح فقط أفقًا لفهم تاريخ النقد، بل تفرض أيضًا إعادة مساءلة موقعنا نحن من الخطاب: كيف نقرأ، وتحت أي شروط، وضمن أي أنظمة تمنح قراءتنا معناها وشرعيتها.

5. قائمة المراجع:

- يوسف كلام، 2009، تاريخ و عقائد الكتاب المقدس بين إشكالية التقديس و التقنين، دار صفحات، سوريا
- باروخ اسبينوزا، رسالة في اللاهوت و السياسة، تر: حسن حنفي،2012، دار التنوير، لبنان
- يوسف كلام، تاريخ و عقائد الكتاب المقدس، 2009، دار صفحات للدراسات والنشر، سوريا
- زالمان شازار، تاريخ نقد العهد القديم: تر أحمد محمد هويدي، 2000، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر
- نظرية المصادر عند جون أستروك، المفهوم و التأسيس، دنداني عبد العزيز، مجلة معارف، البويرة، الجزائر، المجلد18، العدد1، 2023.
- صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، 2004، دار العلم للملايين، لبنان
- مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنية، 1995، دار الفكر اللبناني، لبنان
- أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة و أسرار العربية، المكتبة العصرية،2000، لبنان
- معجم المصطلحات الألسنية، مبارك مبارك،1995 ، دار الفكر اللبناني، لبنان
- أثر الاستشراق الفيلولوجي على الحداثيين في نقدهم للتراث الإسلامي، سليمان جبار، مجلة المعيار، العدد:22، 2022، قسنطينة، الجزائر
- حفريات المعرفة، ميشال فوكو، تر:سالم يفوت، ط2، المركز الثقافي العربي،بيروت، لبنان، 7198
- جيانولوجيا المعرفة، ميشال فوكو،تر: أحمد السطاتي وعبد السلام بن عبد العالي، ط2، دار توبقال، الدار البيضاء المغرب، 2008